

من نفائس المخطوطات
المحفوظة في الخزائن العُمانية (١٥)

مُحِبُّونَ
الإصدار السادس بعد المئة

رَبْعَةٌ قُرْآنِيَّةٌ

من العصر المملوكي المبكر



بقلم:

بَيْطَانُ بْنُ مَبَارَكُ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّيْبَانِي

سلسلة: من نفائس المخطوطات المحفوظة في الخزائن العُمانية
 الحلقة الخامسة عشرة
 رُبْعَة قرآنية من العصر المملوكي المبكر

جميع الحقوق محفوظة
 الطبعة الرقمية الأولى
 المحرم ١٤٤٧هـ / يوليو (تموز) ٢٠٢٥م

محبوب

محبوب للنشر الرقمي
 مسقط / سلطنة عُمان
 البريد الإلكتروني:
mahboub.pd@gmail.com

رَبْعَةٌ قُرْآنِيَّةٌ

من العصر المملوكي المبكر

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،
وعلى آله وصحبه ومن والاه

● ملخص^(١):

استقرَّ إطلاقُ مصطلحِ الرَّبَعَاتِ القرآنية على المصاحف المُجَرَّاة في العصور الوسطى من القرون الهجرية، وظهر الاهتمامُ بها كثيرًا منذ عصر المماليك فَمَنْ بَعْدَهُمْ. وبسبب تجزئتها وصغر حجمها قَلَّ أَنْ تَسْلَمَ من عوادي الزمن، فهي عُرضة للتشتت في مواقع مختلفة.

تتناول هذه الدراسة جُزءًا من رُبْعَةٍ قرآنية محفوظة في إحدى الخزائن العُمانية، يشتمل على قسم من جزء (قد سمع)، ويظهر أنها رُبْعَةٌ شريفة بتجزئة ثلاثين جزءًا، كل جزءٍ منها مقسَّمٌ إلى خمسة أجزاء، فمجموعها مئة

^(١) أصل هذه المادة: ورقة بحثية مقدمة للمشاركة في ندوة: «مخطوطات مصاحف القرن السابع للهجرة؛ الصنعة والصورة»؛ الذي نظمته دار المخطوطات - وقف السلطان أحمد بأستانبول/ تركيا؛ بتاريخ جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤٤٦هـ/ نوفمبر - ديسمبر ٢٠٢٤م، في مكتبة قطر الوطنية بالدوحة. والشكر الجزيل للدكتور محمود مصري؛ الذي شجعني على كتابة هذه الورقة. والشكر أيضا لأساتذتي الكرام على تصويباتهم وملحوظاتهم، وهم: الدكتور غانم قدوري الحمد، والدكتور إدهام حنش، والدكتور عبد العاطي الشراوي.

وخمسون جزءًا صغيرة؛ مجلدة على حدة. ولها أشباه مماثلة، ونظائر مُتَمِّمة، في مكتبات أخرى.

تخلو كل الأجزاء المتوفرة من تاريخ نَسَخ المخطوطة، وقد كُتبت بقلم المصاحف، ولا تزيد أسطر صفحاتها على الأربعة في كل صفحة، ونُقشت أسماء السور بالخط الكوفي القديم المذهب، وكذلك رموز الأعشار والأخماس، وكل جزء من الربعة مُصَدَّرٌ ومختوم بزخرفة بديعة في صفحتين متقابلتين.

يوجي نمط الخط في أجزاء الربعة بأنه متقدم قليلا على زمان ياقوت المستعصمي (المتوفى ٦٩٨هـ)؛ الذي ابتدع طريقةً جديدة أواخر القرن السابع الهجري في كتابة المصحف، وصارت نمطًا يُحتذى به. كما تشير الزخارف غير المعقدة في ثنايا الربعة إلى انتمائها إلى زمن مبكر من عصر المماليك. وقد شكَّلت المصاحف المملوكية منذ القرن الثامن الهجري مدرسةً فنية فريدة قامت على جلاله الخط الذي كُتبت به، وعظم أحجامها، وكثرة تزاويقها.

• وصف المخطوطة:

الرَّبعة: هي المصحف المجزأ. قال الزمخشري في (أساس البلاغة): «وَفَتَحَ الْعَطَارُ رَبْعَتَهُ، وَهِيَ جُودَةُ الطَّيْبِ. وَبِهَا سُمِّيَتْ رُبْعَةُ الْمَصْحَفِ»^(١).

^(١) أساس البلاغة؛ تأليف: جار الله أبي القاسم مُحَمَّد بن عُمَر الزَّخَّشَرِيّ (ت ٥٣٨هـ). ط ١: ١٤٠٥هـ/

وقال الفيروزآبادي في (القاموس): «الرَّبْعَةُ: جُوءَةُ العَطَّار، وصندوقُ أجزاء المصحف، وهذه مُؤَلَّدَةٌ كأنها مأخوذة من الأولى»^(٣). قال شارحه في (تاج العروس): «قال الصاغاني^(٤): وأما الرَّبْعَةُ بِمَعْنَى (صندوق) فيه (أجزاء المصحف) الكريم؛ فَإِنَّ (هذه مُؤَلَّدَةٌ) لَا تَعْرِفُهَا الْعَرَبُ، بل هي اصطلاح أهل بغداد، أو (كأنَّها مأخوذةٌ من الأولى) [يعني جُوءَةُ الطَّيِّب]، وإليه مَالَ الرَّمَحْشَرِيُّ فِي الْأَسَاسِ»^(٥).

وهذه النصوص تفيد إطلاق الربعة على صندوق أجزاء المصحف، ثم صارت تُطلق في القرون الأخيرة على الأجزاء نفسها^(٦).

^(٣) القاموس المحيط؛ تأليف: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ). ط ٨: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

مؤسسة الرسالة - بيروت / لبنان. ص ٧١٩.

^(٤) راجع كلامه في: العُباب الزاخر واللباب الفاخر؛ تأليف: الحسن بن محمد بن الحسن الصَّغَانِي (ت ٦٥٠هـ). تحقيق: فير محمد حسن المخدومي. قابل أصوله وأعاد تحقيقه: تركي بن سهو بن نزال العتيبي. ط ١: ١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م. مركز البحوث والتواصل المعرفي - الرياض / المملكة العربية السعودية. ج ١٠ / ص ١٥٢.

^(٥) تاج العروس من جواهر القاموس؛ تأليف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ). ط ١: ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م. مطبعة حكومة الكويت. ج ٢١ / ص ٤٤.

^(٦) انظر: شرح قصيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب؛ تأليف: محمد بن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن البصيص (ق ٨هـ). تحقيق: يوسف ذنون. ط ١: ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م. دار النوادر - دمشق / سورية. ص ١٧ مع تعليق المحقق.

وأصل الربعة القرآنية - محل هذه الدراسة - من محفوظات خزانة الوقف المبارك بعمان (برقم ١٧٧)^(٧)، يشتمل على خمس من جزء (قد سمع)، ويظهر أنها ربعة شريفة بتجزئة ثلاثين جزءا، كل جزء منها مقسم إلى خمسة أجزاء، فمجموعها مئة وخمسون جزءا صغيرة. وقد وقفتُ على أشباه مماثلة لها، ونظائر مُتَمِّمة، في مكتبة تشستريتي، وبعض مكاتب العراق ومصر، ومكتبة قطر الوطنية، ومجموعة حمد بن عبد الله بن محمد بن جاسم آل ثاني في قطر.



^(٧) انظر وصف هذه الخزانة في: خزائن المخطوطات في عمان (التعريف بها وبنوادرها)؛ فهد بن علي

بن هاشل السعدي. ط ١: ١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٥ م. ذاكرة عمان - مسقط / سلطنة عمان. ص ١٨٦.

Y



تخلو كل الأجزاء المتوفرة من تاريخ النسخ، ويُعدُّ تحديد عمر المخطوط مسألةً عصيّةً الجُزم، وهي في شأن المخطوطات غير المصحفية أيسرُ؛ لتوفر عنصر المحتوى وإمكانية تقريب تاريخه في سياق تطوره اللغوي والمعرفي، أما النص القرآني المخطوط فتظل قرائنُ الخط والزخرفة هي العناصرُ المساعدةُ لتحديد زمان كتابته.

ومن أجل ذلك سعيثُ إلى البحث عن أشباه ونظائر لهذه المخطوطة، لتساعدنا في استكشاف عمرها، مستعينا في الموازنة بالعناصر الخمسة التالية: الخط، ونظام السطر وحجم الصفحات، والشكل والنقط، ونظام التجزئة، والزخرفة والتذهيب. وقبل استعراض هذه العناصر أسرد المخطوطات المساعدة في البحث.

• الأشباه والنظائر لهذه المخطوطة:

١. مصحف البيهقي، وهو مشتمل على السُّبع الرابع من منتصف سورة إبراهيم إلى سورة المؤمنون، في ١١٨ ورقة، بخط أبي نعيم بن حمزة البيهقي في المحرم ٥٩٢هـ. محفوظ في مكتبة تشستريبيتي في دبلن (Chester Beatty Library, Dublin)؛ تحت رقم ١٤٣٥.

٢. الجزء السادس والثلاثون من مصحف مجزأ إلى ستين جزءا (١٦ × ٢١سم) يعود إلى العصر المملوكي المبكر في القرن السابع، مكتوب بخط الثلث المذهب. محفوظ في مكتبة تشستريبيتي في دبلن (Chester Beatty Library, Dublin)؛ تحت رقم ١٤٤٨.

٣. مصحف الناسخ محمد بن عبد الله الخزرجي؛ كتبه مطلع القرن الثامن للهجرة، وذَهَبه: محمد بن مبادر. مكتوب بخط النسخ (٣٥٠ × ٢٥ سم). محفوظ في مكتبة تشستريتي في دبلن (Chester Beatty Library, Dublin)؛ تحت رقم ١٤٥٧.

٤. مصحف شريف مجزأ إلى ستين جزءاً، مكتوب بخط الثلث المذهب (٢١ × ١٦ سم)، في النصف الثاني من القرن السابع تقديراً. مجهول النسخ. الجزء الأول منه محفوظ في مكتبة العتبة العباسية المقدسة - كربلاء/ العراق؛ تحت رقم ٥. وتوجد أجزاء أخرى له في المتحف البريطاني، وفي مجموع ناصر خليلي في لندن.

٥. مصحف السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الثاني؛ كتبه محمد بن الوحيد سنة ٧٠٥ هـ. محفوظ في المكتبة البريطانية ضمن مجموعات الشرق الخاصة من المصاحف النادرة تحت رقم (٢٢٤٠٦-١٢).

٦. المصحف الفارسي؛ هكذا سماه موريتز في (الباليوغرافيا العربية) ص ٨٧، وأصله في المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية)، كُتِبَ سنة ٦٠٧ هـ بقلم مجهول.

٧. المصحف الفارسي الثاني؛ هكذا سماه موريتز في (الباليوغرافيا العربية)^(٨)، وأصله في المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية)، كُتِبَ سنة ٦٣٥ هـ بقلم مجهول.

(٨) انظر عن المصحفين ص ٨٧ - ٨٨.

٨. الجزء الخامس عشر من رُبْعَةٍ قرآنية من تجزئة ثلاثين،
 كتبت في عصر المماليك في القرن الثامن الهجري تقديرا (بمقاس ٢٦.٥ x
 ١٩.٣سم). تبتدئ من سورة الإسراء. محفوظة في مكتبة قطر الوطنية (برقم
 HC.MS.2017.0059).



٩. ربع جزء من المصحف الشريف؛ في عشرين ورقة (١٧.٥x ١٣.٥سم)، ينتمي تقديراً إلى العصر العباسي الأوسط في القرن الرابع الهجري، يشتمل على أواخر سورة التوبة وبداية سورة يونس. من مجموعة حمد بن عبد الله بن محمد بن جاسم آل ثاني في قطر (برقم ٥٥١)^(٩). وهذا الربع هو أقرب المخطوطات إلى مخطوطتنا، بل أكاد أجزم أنهما من رُبْعَةٍ واحدة؛ للتشابه الكبير بينهما في الخط والزخرفة والتجليد.

هذه تسع مخطوطات تدور عليها الدراسة، وسأحرص عند استعراض عناصر الموازنة بينها وبين مخطوطتنا على تحديد أوجه الشبه بينها، مع الاستعانة بمخطوطات أخرى حيثما تدعو الحاجة.

• خط المصحف:

هذا العنصر من أعسر العناصر المساعدة في تحديد عمر المخطوط، للتطور السريع في أنماط الخطوط العربية اللَّيْنَة في القرون الأولى حتى السابع، ويمكن الاحتكام إلى بعض المصنفات في هذا الباب، ككتاب الطَّيْبِي في القرن العاشر: «جامع محاسن كتابة الكُتَّاب»^(١٠).

^(٩) انظر: موسوعة الفئاس؛ مختارات من مجموعة مخطوطات ومقتنيات حمد بن عبد الله بن محمد بن جاسم آل ثاني. المادة العلمية والإشراف: نصر الدين محمد صالح فرفور. ط ١: ٢٠١٧م. الدوحة/ قطر. ص ٣٠.

^(١٠) انظر: جامع محاسن كتابة الكُتَّاب؛ جمعه وكتبه بخطه: محمد بن حسن الطيبي (من القرن العاشر الهجري). نشره وقدم له: صلاح الدين المنجد. ط ١: ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م. دار الكتاب الجديد- بيروت/ لبنان.

والأقرب أن الربعة كُتبت بقلم المصاحف الذي يُعدُّ مصحفُ ابن البواب الأنموذجَ الأمثل له، وهو خطٌ شاع بعد ذلك في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة، وتعدَّى استعماله إلى غير المصاحف^(١١). ويتميز بليونة حروفه وثخانة قلمه، ويكتب بقطعةٍ مدوّرة تتماثل فيها الخطوط الأفقية والرأسية في السّمك، وهو يأخذ من النسخ تقصيرَ عراقاته^(١٢).



ويوحى نمط الخط في أجزاء الربعة بأنه متقدم قليلاً على زمان ياقوت المستعصمي؛ الذي ابتدع طريقة جديدة أواخر القرن السابع الهجري في كتابة المصحف، وصارت نمطاً يُحتذى به، وتتميز طريقة ياقوت في قطة القلم

^(١١) انظر وصفه وشكله في كتاب الطيبي: جامع محاسن كتابة الكتاب؛ ص ٥٤.

^(١٢) يشترك معها في هذا: مصحف حمد بن عبد الله آل ثاني، ومصحف البيهقي ٥٩٢هـ، والمصحف

الفارسي ٦٠٧هـ، والمصحف الفارسي الثاني ٦٣٥هـ.

المحرفة التي ابتدعها، ونتج عنها خطٌ دقيق الطوالع، كامل السمك في أفقياته، وتمت بذلك أهم صفات الخط العربي.

كما يختلف خط المصاحف الذي كُتبت به هذه الربعة عن خط المحقق، الذي ظهر بشكل واضح في القرن الثامن، ويُعدُّ في حينه أقوى الخطوط وأجلَّها، وسمي بذلك لأنه يحقق تناسب أجزائه، بصواعده الطويلة، وعراقاته الممتدة الواسعة. وتشارك الخطوط السابقة كلها في وضوحها وكبر حروفها.



أما مخطوطة مجموعة حمد بن عبد الله بن محمد بن جاسم آل ثاني في قطر - التي رجحت أنها متممة لمخطوطتنا - فقدّر المهرسون أنها تعود إلى العصر العباسي الأوسط؛ حوالي سنة ٣٥٠هـ. ولعل العناصر الأخرى التي سنستعرضها فيما يأتي لا ترجح كفة هذا الرأي.



لوحة من مخطوطة مجموعة حمد بن عبد الله آل ثاني



لوحة من نسختنا

وُتستثنى مما تقدم أسماء السور وعدد آياتها، فقد كُتبت بخط كوفي مُذهَّب^(١٣). وسيأتي مزيد حديث عنه في الزخارف والتذهيبات.

• نظام السطر وحجم الصفحات:

كُتبت الربعة بقلم كبير، وفراعُ ما بين سطوره موزونٌ وكافٍ لوضوح الحروف ورسمها بكل توفية، وتُعدّ البسملة مقياسًا وسَطًا لعدد كلمات كل سطر، مع مدّة صغيرة غير مبالغ فيها، فهي أربع كلمات في المتوسط، وفي كل صفحة أربعة سطور فقط^(١٤).

و«كان نظامُ السطر في المصاحف من القرن الرابع الهجري إلى السادس ضيقًا، ومزدحمًا، وبعد ذلك - ولعله لتوفر الورق - اتسعت السطور، وانفجرت الكلمات، وغُني بمرور الزمن بتوازن السطر وانسجام كلماته»^(١٥).

أما حجم الصفحات فهو صغير، بمقاس ١٧ × ١٤ سم، ويَقْرُب من القَطْع المربع، والكلام المكتوب يتوسط الورقة تقريبًا، محاطًا ببياض شبه

(١٣) يشترك معها في هذا: مصحف حمد بن عبد الله آل ثاني، ومصحف تشسريبيتي ١٤٤٨، ومصحف تشسريبيتي ١٤٥٧، ومصحف العتبة العباسية.

(١٤) يشترك معها في هذا: مصحف حمد بن عبد الله آل ثاني، ومصحف تشسريبيتي ١٤٤٨، ومصحف العتبة العباسية.

(١٥) خطوط المصاحف عند المشاركة والمغاربة من القرن الرابع إلى العاشر الهجري؛ تأليف: محمد بن سعيد شريفي. الطبعة الأولى: ٢٠١١ م. موفم للنشر - الجزائر. ص ٢٣٢.

متساوٍ في حواشيه الأربع. وشَدَّتْ بعضُ العَرَاقَاتِ فخرجت عن إطار المساحة المكتوبة^(١٦).



• الشكل والنقط:

ليس في نظام شكل هذه الربعة ما يلفت الانتباه، فهو جارٍ على القواعد التي استقر عليها العمل إلى يومنا هذا، وإن كان الكاتب لم يلتزم بالرسم العثماني في كتابته.

^(١٦) يشترك معها في هذا الوصف: مصحف حمد بن عبد الله آل ثاني، ومصحف البيهقي، ومصحف الظاهر

• نظام التجزئة:

قدمنا الحديث عن اشتمال هذه المخطوطة على قطعة من جزء (قد سمع)، وأولها قول الله تعالى في الآية السابعة من سورة الممتحنة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إلى تمام السورة، تليها سورة الصف كاملة، ثم سورة الجمعة إلى الآية السادسة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ويظهر من محتوى المخطوطة أنها ربعة شريفة بتجزئة ثلاثين جزءاً، كل جزء منها مقسم إلى خمسة أجزاء، فمجموعها مئة وخمسون جزءاً صغيرة. وهذه القطعة التي بين أيدينا هي الخمس الأوسط في جزء قد سمع، يسبقه خمسان، ويليه مثلهما^(١٧).

• الزخرفة والتذهيب:

نُقِشت أسماء السور في هذه الربعة بالخط الكوفي القديم المذهب، مشتملة على بيان كونها مكية أو مدنية، مع عدد آياتها. ووردت في موضعين؛ الأول: «سورة الصف. مدنية. أربع عشرة آية». والثاني: «سورة الجمعة. مدنية. إحدى عشرة آية». وهي تتصدر الصفحة في كلا الموضعين.

^(١٧) وهذا ما يرجح أن القطعة المحفوظة في مجموعة حمد بن عبد الله آل ثاني هي الخمس الأوسط من الجزء الحادي عشر.

أما رموز الأخماس والأعشار فهي جارية على طريقة ابن البواب في مصحفه، ووردت علامة الأعشار في موضعين فقط من هذه الربعة الأولى: عند نهاية الآية العاشرة من الممتحنة، والثانية عند نهاية الآية العاشرة من الصف، وهي دائرة مزخرفة بلون الذهب واللون الأحمر، كُتبت في وسطها كلمة «عشر» بالخط الكوفي المذهب، كما وردت علامة الأخماس مرتين أيضا: عند الآية الخامسة من سورة الصف، والخامسة من الجمعة^(١٨).



وما عدا ذلك لا نجد زخرفة في ثنايا النص سوى علامة فواصل الآيات، وهي أشبه بوردة ذهبية محاطة بدوائر حمراء صغيرة^(١٩).

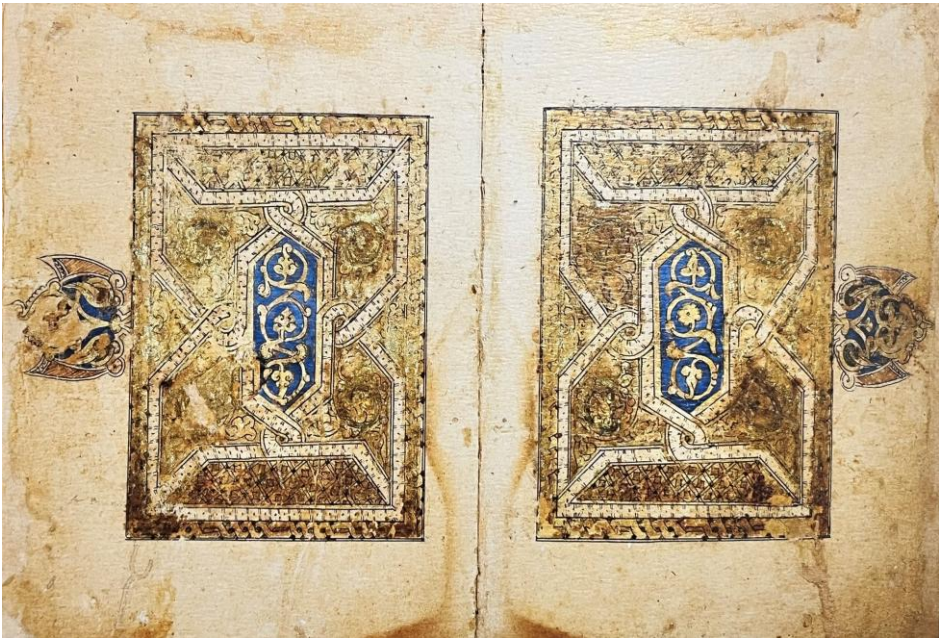
^(١٨) يشترك معها في هذا: مصحف حمد بن عبد الله آل ثاني، ومصحف تشستريتي ١٤٤٨، ومصحف العتبة العباسية، ومصحف الظاهر بيبرس.

^(١٩) يشترك معها في هذا: مصحف حمد بن عبد الله آل ثاني، ومصحف تشستريتي ١٤٤٨، ومصحف الظاهر بيبرس.



وهذه القطعة من الربعة مُصَدَّرَةٌ ومختومة بزخرفة بديعة في صفحتين متقابلتين، وهي زخرفة هندسية مطعمة بأشكال نباتية، يطغى عليها لونان بارزان: الذهبي والأزرق اللازوردي. ويختلف شكل البداية عن شكل الختام. وهذا النمط في اللوحة الافتتاحية – أو ما يسمى أحيانا: السرلوحه – شاع في العصر المملوكي^(٢٠).

(٢٠) يشترك معها في هذا: مصحف حمد بن عبد الله آل ثاني، ومصحف تشسرتيبي ١٤٤٨، ومصحف تشسرتيبي ١٤٥٧، ومصحف مكتبة قطر الوطنية. وانظر زخرفة مماثلة في قطعة من تفسير النيسابوري، كتبها: محمد بن محمد العميد سنة ٦٣٠ هـ (في السليمانية بتركيا؛ رقم ٣٠١). ومع تقدير المفسرين لمخطوطة حمد بن عبد الله آل ثاني أنها تعود للقرن الرابع؛ نجدهم يذكر أن الزخارف ربما لا تنتمي لنفس الفترة.



اللوحة العليا للزخرفة في نسختنا

واللوحة الدنيا للزخرفة في نسخة مجموعة حمد بن عبد الله آل ثاني

وفي الإجمال تشير الزخارف غير المعقدة في هذه الرتبة إلى انتمائها إلى زمن مبكر من عصر المماليك. وقد شكّلت المصاحف المملوكية منذ القرن الثامن الهجري مدرسة فنية فريدة قامت على جلاله الخط الذي كُتبت به، وعظم أحجامها، وكثرة تزاويها.